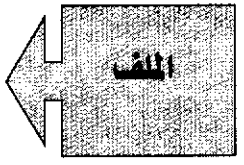

ثقافة التقريب

المشاركون :

أ. د. سعاد صالح/ إشاعة ثقافة التقريب

أ. د. عبد الرحمن حمود السميط/ ثقافة الوحدة والتقريب ودور مؤسسات المجتمع المدني

أ. د. صالح بن سليمان الوهيبي/ المنظمات الدولية واثرها الفكري والثقافي على الامة الاسلامية

أ.د. سعاد صالح

أستاذ ورئيس قسم الفقه بجامعة الأزهر

إشاعة ثقافة التقريب

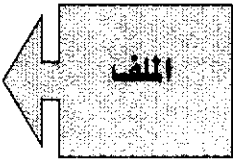

مقدمة

الحمد لله الذي خلق الناس من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء. وجعل اختلاف ألوانهم وألسنتهم آية من آياته. وأكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ورضي لهم الإسلام ديناً. ودعاهم إلى التمسك بدينه القويم وصراطه المستقيم.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وكشف الغمة وجاهد في الله حتى أتاه اليقين.

أما بعد

فالأمة الإسلامية هي الأمة التي وصفها الله تعالى بأنها خير أمة أخرجت للناس في قوله تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ [1]. فهذه الآية الكريمة فيها تكريم للأمة الإسلامية، وفيها تكليف بالإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجعلها

شروطاً للخيرية. وفيها نقد لأهل الكتاب وإخبار للمسلمين بما وقعوا فيه من الاختلاف حيث كان منهم المؤمنون وكان أكثرهم فاسقين.

هذه الأمة التي اختارها الله لتكون خير أمة أخرجت للناس يجب أن تكون أمة واحدة لقوله سبحانه: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[٢]. وآيات أخرى كثيرة. ووجوب وحدة هذه الأمة يرجع إلى أن إلهها واحد وأصلها واحد ونبيها واحد ودينها واحد.

وقد تأسست هذه الأمة على مبدأ الوحدة متزاوجا مع مبدأ التعددية. ولا تناقض أو تضارب بين المبدأين. فمظلة الإسلام واسعة تحتوي كل الأعراق والألوان والألسن. بل إن مظلة الإسلام تحتوي بظلها المسلمين وغير المسلمين في المجتمع الواحد.

بهذا المزج المتفرد بين الوحدة والتعددية نشأت الحضارة الإسلامية وامتدت الدولة الإسلامية من الصين شرقاً إلى فرنسا وإسبانيا غرباً، ومن سيبيريا شمالاً إلى جنوب آسيا وأفريقيا في جنوب المعمورة. وأثرت هذه التعددية في إطار الوحدة الحضارة الإسلامية وقدمت للحضارة الإنسانية زادا لا ينفد.

غير أن المد الحضاري للأمة الإسلامية أخذ في الانحسار بضعف الدولة الإسلامية وتآكل أطرافها وعجز مراكز القوة فيها. وتزامن انحسار الدولة الإسلامية مع بروغ الحضارة المادية الغربية التي سادت العالم منذ عدة قرون حتى الآن. وتحولت الأمة الإسلامية من القوة للضعف وانتقلت من مركز القيادة إلى مركز الانقياد. ونزحت ثرواتها لتصب في شرايين الدول الاستعمارية الغربية. ولكن هذا الحال لم يكن قدرا مقدورا بل كان لابد من أن تفيق الأمة وأن يسعى المخلصون من أبنائها لتخلصيها من أدوائها حتى تستطيع أن تقف في وجه أعدائها. ولن يكون ذلك إلا بالعودة إلى منابعها الأصيلة ومناهجها القويمة المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وتحقيق هذا الهدف يقتضي تضافر أفكار وجهود المخلصين من ابنائها من علماء وسياسيين وتربويين ومثقفين وإعلاميين وفقاً لمنظومة للنهضة تحيي الهمم وتستنفر العزائم وتجلو العقول وتوحد الصفوف. من هنا فإن دور المؤسسات العلمية والتربوية والإعلامية في إشاعة روح التقريب والتآلف وتأصيل وتنمية روح الوحدة دور هام وحيوي. وهذا هو محور هذا البحث.

ويشتمل هذا البحث على المحارو الآتية:

- المحور الأول: الأصل الشرعي لوحدة الأمة.
- المحور الثاني: منشأ الخلاف وثمراته.
- المحور الثالث: ضرورة التقريب.
- المحور الرابع: دور مؤسسات المجتمع في التقريب.

المحور الأول: الأصل الشرعي لوحدة الأمة

جمع الإسلام في بنائه للأمة الإسلامية جمعاً فريداً معجزاً بين أصلين هما الوحدة والتعدد. فهذان الأصلان يبدوان متناقضين. والحقيقة أن تمازج الوحدة والتعدد أو التنوع هو وجه من وجوه الإعجاز الإلهي. فالأصل في الإنسان هو الوحدة والتعدد في الوقت ذاته. ولننظر إلى مصداق ذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا﴾[٣]. فالأصل في البشرية آدم الذي خلقه الله من تراب ومن آدم جاءت حواء.

ومن لقاء آدم وحواء كان الرجال والنساء والشعوب والقبائل ذات الألوان والألسنة المختلفة. يقول الله سبحانه: ﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[٤].

ويقول عز وجل مؤكداً أن هذا الاختلاف آية من آياته في الكون: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾[٥]. وقال عز ثناؤه: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين...﴾[٦]. ويقول جل شأنه: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون﴾[٧]. وتتعدد الآيات الكريمة التي تثبت هذا المعنى (الوحدة والتعدد).

ويقول سبحانه: ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[٨].

فإذا انتقلنا من هذا الإطار العام الشامل للإنسانية كلها لنطبقه على الأمة الإسلامية فسوف نجده منصوصا عليه بوضوح لا يقبل الغموض أو اللبس، ومؤكدا تأكيداً لا يقبل النفي أو المراجعة. ولا عجب في ذلك فإن النص على وحدة الأمة جاء صريحاً وقاطعاً في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾[٩]. وفي قوله عزوجل: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون﴾[١٠]. وفي قوله جل شأنه: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[١١].

ولأن الله تعالى هو العليم بخلقه فقد دعا المؤمنين إلى الوحدة ونهى عن التفرق. وليس من سبيل لوحدة المسلمين إلا التمسك بدين الله القويم وحبله المتين. فقال سبحانه: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم

على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم﴾[١٢].

وقال عزوجل: ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾[١٣] وحذر من مغبة الفرقة والتشرذم في قوله: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾[١٤]. وحذر النبي(ص) المسلمين من الاختلاف والفرقة التي تجعلهم كغثاء السيل وتغرى بهم الأمم وتنزع مهابتهم من قلوب أعدائهم.

وقد كان التنوع في إطار الوحدة أمراً طبيعياً بل ضرورياً. فإن الدين الذي اختاره الله وارتضاه لعباده هو الإسلام لقوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم﴾[١٥]. وقوله جل شأنه: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾[١٦]. وقوله: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾[١٧]. هذا الدين عام شامل خالد يشمل العرب وغير العرب. ويمتد من زمان نزول القرآن بامتداد الحياة البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ومن ثم فإن هذا الدين يستوعب كل الأجناس والأعراق والألوان واللغات واللهجات لقول الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[١٨]. ولقول النبي(ص) في خطبة الوداع: «إن إلهكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم. وآدم من تراب».

وقولـه عليه أفضل الصلاة والسلام: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى».

وفقاً لهذا المبدأ الحكيم – مبدأ التعددية في إطار الوحدة – دخلت الشعوب والقبائل في دين الله افواجاً. وبدأت الفتوحات الإسلامية في عهد الرسول(ص) وامتدت أجيالاً طويلة بعد لحاقه بالرفيق الأعلى. وكان لذلك أثره في ثراء وتألق الحضارة الإسلامية التي صهرت الشعوب المختلفة في بوتقة واحدة هي بوتقة الأمة الواحدة التي تدين بدين واحد.

المحور الثاني: منشأ الخلاف وثمراته

بعد عصر النبوة ثم عصور الخلفاء الراشدين وقعت أحداث وتمت تحولات عديدة. يهمنا منها هنا أمران كان لهما من مزايا وكان فيهما ما فيهما من عيوب دفعت الأمة ثمنها:

ـ الأمر الأول نشأة المدارس الفقهية التي تحولت إلى مذاهب.

ـ والأمر الثاني الخلافات السياسية وما ارتبط بها وترتب عليها من انشقاق مذهبي أدى إلى نشوء مذاهب مختلفة داخل الإسلام وطوائف داخل الأمة الإسلامية.

والناظر في تاريخ الإسلام والشعوب ومن بينها الأمة الإسلامية يجد أن الاختلاف في الآراء والأحكام ظاهرة طبيعية وأمر مألوف بل ولازم في كل تشريع يتخذ من أعمال الناس وعاداتهم مصدرا له ومن آرائهم وأفكارهم مستمدا له وسندا. ذلك لأن عادات الناس مختلفة وأغراضهم متعددة وأعمالهم متنوعة وآراءهم متباينة وأحياناً تكون متعارضة ومتناقضة وأنظارهم متباينة.

وتلك فطرة الله التي فطر الناس عليها. يقول سبحانه وتعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فأحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾[١٩].

ولذا كانت جميع الشرائع الوضعية – ولا تزال – محلا للخلاف ومثارا للجدل والنقاش لأنها من وضع الناس ومن نتاج أفكارهم في سبيل ما يبتغون من مصالح تختلف باختلافهم نظرا وغرضا وبيئة وزمنا.

وقد خلصت من ذلك الشريعة الإسلامية أيام كان الرسول(ص) يبلغها ويقوم على بيانها والفصل بين الناس بأحكامها. وذلك إذ كانت وحيا إلهياً ينزله الله عليه ليحكم به بين الناس أو اجتهادا منه يقره الله عليه. وما كان من عند الله فلا خلاف فيه فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم:﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾[٢٠]. أما بعد وفاته(ص) وانقطاع الوحي فقد اضطر خلفاؤه ومن كان معهم من الصحابة ومن جاء بعدهم من المفتين والقضاة والفقهاء إلى أن يطبقوا ما حفظوه على اختلاف الألوان وتباين الظروف وتباعد المواطن. وذلك إنما يقوم على النظر والموازنة بين ما حدث في زمن الرسالة وما حدث بعدها، والتحقق من وجود المماثلة بين الحوادث السابقة والحوادث اللاحقة واشتراكها في مناط الأحكام وعللها بعد معرفتها أو انتهائها. ثم البحث عن المقتضيات والموانع، وعن معاني النصوص وما يراد بها، وصلة بعضها ببعض بيانا وإطلاقا وتقييدا وتخصيصا وتعميما ونسخاً . وتلك الأمور تختلف فيها الأنظار. فنشأ بسبب ذلك الخلاف والتنوع، فمنه خلاف في الوقائع السابقة وظروفها وتحقيق مناط الأحكام

النازلة فيها، وعقد وجوه المماثلة بينها وبين ما استجد من الحوادث. ومنه خلاف فيما نقل من أحكامها وما صح نقله منها ومالم يصح وما استقر عليه الأمر ومالم يستقر. ومنه خلاف في تعرف مناط الأحكام النازلة، ومالـه من شروط وما يعرض له من موانع. ومنه خلاف في اتخاذ تلك المماثلة أساساً شرعياً تتعدى بها الأحكام إلى غير محالها النازلة فيها، وفي ربط تلك الأحكام بما استنبط من عللها وحكمها وعدم ربطها.

وإذا لاحظنا مع هذا أن أساس التشريع إنما هو ابتغاء المصلحة التي ينشدها الناس على اختلافهم في الغرض منها، والغاية التي يطلبونها، وأن ذلك يقوم على مجهودهم الفكري ومقدرتهم الإنسانية ووزنهم البشري، وأن أساس التشريع الإسلامي يقوم أولا على تفهم ما نزل من النصوص على رسول الله(ص) كتاباً كان أو سنة، بعد التحقق من صحة صدور تلك النصوص من الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالنسبة إلى السنة، وتمييز ما يجب العمل به منها وما لايجب العمل به، والبحث فيها عن الحكم المطلوب حتى إذا تبين أن ليس فيها ما يدل عليه وجب النظر في المصلحة المقتضية للحكم وفي أية مصلحة تعتبر وأية مصلحة لا تعتبر.

وقد استتبع النظر في النصوص النظر في القياس والبحث عن روح التشريع الإسلامي واستنباط أصوله العامة من مختلف القواعد والأحكام ثم تطبيق ذلك على الحوادث. كما استتبع النظر في قول الصحابي ورأيه أيصلح تفسيراً وبياناً للنصوص أم لا يصلح. والنظر في العرف ومكانته من النصوص أيصح تفسيراً أو بيانا لها أم لا يصح. وفي أي عرف يجوز أن يعتبر وأي عرف لا يجوز أن يعتبر. إذا لاحظنا كل هذا يتبين لنا كيف تعددت أسباب الخلاف في الشريعة الإسلامية.

ولعل أول اختلاف في الرأي بعد وفاة الرسول(ص) – فيما نعلم – كان بشأن مسألة الخلافة ومن يخلفه(ص) من أصحابه في ولاية أمر المسلمين. إذ اختلفوا فيمن تكون فيهم الخلافة أمن المهاجرين أم من الأنصار. ثم أتكون لواحد أم لأكثر. وفيمن يولاها من الأصحاب. وكان مرد اختلافهم هذا – كما يؤخذ مما روى – اختلافهم في أي الفريقين أحق بها لأنهم أعظم سابقة، وأرسخ قدماً في نصرة دين الله، وأخرى أن ينظروا فيما يصلح المسلمين ويرشدهم إلى الطريق المستقيم.

وجد الخلاف إذن بعد وفاة الرسول(ص) في الأحكام، ولايزال إلى اليوم قائما مادام الناس هم الناس بطبعائهم وأنظارهم وتقلبهم ومعايشهم وتعليمهم وتربيتهم وبيئتهم وأعرافهم.

وكان من آثاره ظهور الطوائف الإسلامية والمذاهب المختلفة في الأحكام الشرعية. فمنها ما بقي إلى اليوم، ومنها ما اندثر ولم يبق منه إلا اسمه أو بعض آراء حفظتها لنا كتب الخلاف. (أسباب اختلاف الفقهاء للشيخ علي الخفيف، ص ١٢ ومابعدها).

وقد ارتبطت الاختلافات الفقهية بالخلافات السياسية مما خلق نوعا من المذهبية الفقهية السياسية. ورغم أن الأمة الإسلامية قد عانت أشد المعاناة من هذه الخلافات فإنها استطاعت أن تتجاوزها في القرون الأولى. ولم تحل هذه المعاناة دون الفتوحات الإسلامية التي كونت دولة عظمى. ولم تحل دون انتشار رسالة الإسلام سواء بطريق الفتح أو بطريق التجارة والقدوة السلوكية والتعاون بين الناس. ولم تحل دون مساهمة الأمة الإسلامية في بناء الحضارة الإنسانية وإثرائها في كافة المجالات.

ولكن سنة الله في الكون تقضي بعدم دوام الحال. ومن مقتضى هذا أن الأمة تكون في حالات مد وجزر وصعود وهبوط وبزوغ وأفول وانتصار وانكسار وسبحان من بيده مقاليد كل شيء. فقد انتقل المد الحضاري إلى الغرب الذي مازال بازغاً، في الوقت الذي تفككت فيه الأمة الإسلامية وتخلفت، وبعدت عن مناهلها الأصلية ومنابعها القومية. ومرت بأزمات وكوارث ليس لها منها عاصم إلا الله سبحانه وتعالى. وصار من واجب هذه الأمة أن تدرك جسامة الخطر المحدق بها سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعسكريا واجتماعياً. ومن هنا تنادى دعاة الإصلاح محاولين رأب الصدع وإيقاظ الهمة واستثارة نخوة الأمة لإعادة الإسلام. وظهرت دعوات للتقريب بين المذاهب الفقهية ومحاولات للتنسيق السياسي والتعاون الاقتصادي.

المحور الثالث : ضرورة التقريب

وكما كانت الفروق المذهبية والاختلافات الفقهية عوامل ضعف لهذه الأمة فيجب أن يكون التقريب بين المذاهب والحد من الخلافات الفقهية، خاصة في القضايا التي تمس وجود هذه الأمة وتؤثر في قدرتها ومكانتها، سبيلاً لاستعادة أسباب وحدتها وعناصر قوتها وعوامل نهضتها.

ويمكن أن نجمل أهمية وأسباب ضرورة نجاح هذه الجهود فيما يلي:

أولاً: إن الأمة الإسلامية قد وصلت إلى حالة مؤلمة من الضعف والهوان بسبب التمزق والاختلاف الذي يؤدي إلى الشقاق والنزاع الذي نهى عنه الإسلام وحذر منه. وتحتاج إلى التجمع والتوحد تحت راية الإسلام ممثلة في أصليه: كتاب الله وسنة رسوله(ص) لقول الله تعالى: ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم

فاعبدون﴾[٢١]. وقول النبي(ص) «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وسنتي».

ثانياً: إن التقريب بين المذاهب والابتعاد عن التعصب المذهبي يرجع في الأساس إلى أن هذه المذاهب ليست من أصل الدين ولم توجد ليعتنقها الناس، أو لكي تكون ملزمة لهم. بل وجدت على أنها آراء لأصحابها فيما عرض عليهم أو تعرضوا له من المسائل والمبادئ تتمثل فيها أفكارهم وأنظارهم ويتبين منها حكمهم على الأشياء أو حكم الله في نظرهم. فالله سبحانه وتعالى لم يأمر المسلمين بالتمذهب بمذهب بعينه بل أمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول وأولى الأمر بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا﴾[٢٢].

ثالثاً: إن وجود المذاهب المتمايزة بأسمائها وأتباعها الذين ينتسبون لها، ولا يرون الحق إلا فيما ذهبت إليه، ليس ضرورة حتمية لوجود الخلاف. بدليل أن الخلاف موجود فعلا في إطار المذهب الواحد دون أن ينقسم المذهب إلى مذاهب متعددة تنتسب إلى أصحاب هذا الخلاف. من ذلك مثلا ما نراه في مذهب أبي حنيفة حيث نرى اختلافا كثيرا بينه وبين أصحابه أبي يوسف ومحمد واختلافا بين بعضهم مع بعض في كثير من المسائل دون أن ينقسم هذا المذهب إلى مذهب لأبي حنيفة ومذهب لأبي يوسف ومذهب لمحمد، وكذلك يلاحظ في غيره من المذاهب الأخرى.

رابعاً: أنه من المهم جدا لدراسة المذاهب الفقهية دراسة دقيقة عميقة محيطة بجميع نواحيها واتجاهاتها وموازنة بعضها ببعض وترجيح بعضها على البعض أن نرجع هذه المذاهب إلى أصولها، ونتبين إن كان بينها اختلاف في

الأصول والمبادئ، أم ليس بينها اختلاف في الأصول والمبادئ فلا يكون هناك محل للإبقاء على التعصب والتنافر.

خامساً: أن بيان مواضع الاتفاق ومحاولة التقريب بين المذاهب التي في الأصل تشترك في الأصول والمبادئ والأدلة التي تستقى منها الأحكام الشرعية له أهميته العظمى وأثره القوي في جواز التلفيق بين الآراء من المذاهب المختلفة، والخروج منها برأي موحد مؤلف من رأيين أو أكثر، أو عدم جواز ذلك. لأن أصول الآراء إذا كانت مختلفة متعارضة لم يكن من المقبول التلفيق بينها بأخذ رأي في مسألة من المسائل يعتبر مزيجاً من جملة آراء تتعارض أصولها بعضها مع بعض. لأن كل اصل اعتمدت عليه في ناحية يستلزم بطلان ما أخذت به في الناحية الأخرى من المسألة. إذ لا يصح أن ترى الشيء الواحد في وقت واحد صحيحاً، باطلاً. فذلك لا يقبله عقل ولا يسوغه نظر. أما عند اتحاد الأصل فليس ثمة ما يمنع من ذلك.

سادساً: أننا كأمة إسلامية واحدة نحتاج الى تطبيق آداب الخلاف فيما بيننا مبتعدين عن منهج التكفير أو التسفيه الذي يعطي لأعداء الإسلام الذخيرة الحية التي يضربون بها مبادئ الاسلام التي تقوم على احترام الآخر وعلى الحجة والبرهان وحسن الظن بالمخالف، وتغليب جانب الأخوة في الله على كل اعتبار عملا بمبدأ الوقاية خير من العلاج. ولنتذكر أن الأمم التي حلقت عاليا في آفاق التقدم هي الأمم التي أقرت التعددية واحترمت الخلاف وقبلت بالرأي الآخر في كل المجالات وإذا كانت التعددية في إطار الوحدة أصلا في بناء الأمة الإسلامية فنحن بحاجة ملحة إلى العودة لهذا الأصل.

المحور الرابع: دور مؤسسات المجتمع في التقريب

التقريب بين المذاهب الفقهية والتيارات الثقافية والمؤسسات السياسية صار واجبا حتميا في ظل الظروف التي تواجه الأمة كما أسلفنا. ودور العلماء دور

قيادي فالعلماء هم ورثة الأنبياء. وهم مشاعل الهدى. ودعوات الإصلاح يجب أن تبدأ من عندهم. وهذه الدعوات لا يمكن أن تنطلق نحو مراميها وتحقق أهدافها بغير حشد شعبي يؤيدها ويعززها انطلاقا من كونها واجبا دينيا هو مأمور به ومن كونها هي المحققة للخير والصلاح للمسلمين وللبشرية كلها.

من هنا تبدو أهمية البناء أو إذا شئنا الدقة في التعبير تبدو أهمية إعادة البناء الفكري للأمة الإسلامية. وهذه مهمة شاقة وعسيرة ولكنها حتمية، وبغيرها سوف يدهم الأمة الإسلامية قطار العولمة بتداعياته السياسية والاقتصادية والثقافية.

ولعل أهم مؤسسات في المجتمع الإسلامي يمكن أن يعول عليها في هذا الشأن هي المؤسسات العلمية والتربوية والتعليمية والإعلامية؛ لأنها هي المنوط بها بناء الشخصية وتكوين الوجدان وترشيد الرأي العام للأمة.

والملاحظات الأولية تبرز لأول وهلة على هذه المؤسسات هي:

أولاً: الإغراق في المحلية ونقص الاهتمام بالقضايا العربية والإسلامية سواء في المناهج التعليمية والتربوية أم في الأبحاث العلمية والبرامج الإعلامية.

ثانياً: غلبة الطابع العلماني على الكثير من مناهج التعليم بصفة عامة وعلى المحتوى الإعلامي على حساب الجوانب الروحية والدينية.

ثالثاً: الاهتمام بالنظريات العلمية والمستوردة وتجاهل النظريات والحقائق العلمية التي توصل لها العلماء المسلمون على مدى القرون الماضية.

رابعاً: الغياب الذي قد يصل في بعض الأحوال إلى حد التعتيم المقصود والمخطط على إنجازات البلاد الإسلامية لمجرد الاختلاف في المذهب الديني أو التوجه السياسي.

وإعادة البناء الفكري للأمة تقتضي تغيير هذا الواقع. وإذا كانت كل مؤسسات المجتمع تتحمل مسؤولية مشتركة عن ذلك فإن المؤسسات العلمية والتربوية والإعلامية تتحمل القدر الأكبر من المسؤولية . وفيما يلي بيان لدور كل مؤسسة:

أولاً – المؤسسة العلمية والتربوية

تتحمل هذه المؤسسة بكل أجهزتها مهمة البناء الفكري للأجيال الجديدة التي تمثل أمل الأمة. وواجب هذه المؤسسة أن تقوم بدور حيوي في إعادة بناء فكر إسلامي ناهض يتجاوز حساسيات الواقع وعقده وأزماته. ويقف العلماء والمربون في طليعة الصفوف التي تتحمل المسؤولية عن تحقيق هذه المهمة. ويقتضي تحقيق هذا الدور مايلي:

١. العناية باللغة العربية كلغة تخاطب أولى أو ثانية حسب ظروف كل مجتمع إسلامي. ومحاربة دعوات تغليب اللهجات العربية المحلية التي تستهدف تحويل هذه اللهجات إلى لغات رسمية على حساب اللغة العربية الفصحى.

٢- العمل على توحيد مناهج التربية الدينية في مراحل التعليم الأولى لبناء وحدة الفكر وإزالة الاختلافات الطفيفة في بعض الشعائر والتي تتحول بعد ذلك إلى خلافات تفرق بين المسلمين.

٣- إعادة صياغة مناهج التاريخ الإسلامي وتنقيتها من كل ما قد يسيئ بشكل مباشر أو غير مباشر إلى آل بيت رسول الله أو خلفائه الراشدين أو صحابته الكرام. ووضع الأحداث التاريخية في سياقها الصحيح دون تجريح ودون إصدار أحكام متحيزة.

٤- بث روح التفاهم والحوار من خلال المناهج التعليمية والتركيز على عناصر وحدة الأمة الإسلامية والعوامل المشتركة بين شعوبها.

٥- إعادة النظر في مناهج دراسة الفقه على الجانبين السني والشيعي بهدف التقريب بين المذاهب.

٦- إعادة صياغة مناهج التربية على المستوى الجامعي لتربية الأجيال الجديدة على احترام الاختلاف والتعددية المذهبية في إطار الوحدة الإسلامية بإعتبار الاختلاف سنة من سنن الكون، وأن التعايش بين المذاهب وأتباعها أولى وأوجب من التعايش مع الآخرين.

٧- تشجيع إجراء البحوث المشتركة وإنشاء المجامع العلمية المشتركة التي تضم علماء من كافة المذاهب وخاصة من أهل السنة والشيعة لإجراء دراسات مشتركة في قضايا محددة. وتعميم نتائج هذه الدراسات.

وتنفيذ هذه التوصيات وغيرها يتطلب بلا شك قدراً كبيراً من الموضوعية والشجاعة ومغالبة النفس والتسامي على التعصب المذهبي وضيق الأفق السياسي. كما يتطلب حواراً مستمراً بين العلماء والحكام إذ أن كثيراً من الأفكار والمواقف والمناهج تتأثر بالتوجهات السياسية.

ثانياً: المؤسسة الإعلامية

يلعب الإعلام دوراً مؤثراً ومتزايداً في تكوين الرأي العام وتشكيل وجد ان الأمم والشعوب. وهو الآن يقوم بدور حيوي في مجال الدعوة الإسلامية. كما أنه أداة فعالة في أيدي أعداء الإسلام والمسلمين. فمن خلاله يبثون الصور المشوهة ويشكلون صوراً ذهنية زائفة ويبذرون بذور العداء ضد الأمة الإسلامية ويربطون ربطاً خاطئاً ومغرضا بين الإسلام والتخلف، وبينه وبين الإرهاب.

ويجب بالمقابل أن يستخدم الإعلام في إيقاظ همة الأمة وفي دفع المسلمين في اتجاه النهضة والوحدة وفي إيجاد وتنمية التفاهم والتقارب بين الأمة الإسلامية وغيرها من الأمم.

وقد تطورت وتعددت الوسائل بفضل الاكتشافات العلمية والإنجازات التقنية الحديثة وعلوم وفنون الاتصال. وصار الحديث الآن لا يتناول الصحيفة والمجلة والكتاب وأجهزة الراديو والتلفاز فقط، ولكن الحديث الآن يشمل الوسائط المتعددة The Multimedia التي تعنى حزمة من الوسائل الاتصالية تشمل شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت Internet) والأسطوانات الممغنطة C.D والأشرطة السمعية/ بصرية وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة.

إن وسائل الإعلام في الدول الإسلامية مطالبة بما يلي:

١- العمل على تنظيم وإعلاء دور الإسلام في الارتقاء بحياة الأمة الإسلامية باعتباره دين العلم والعمل ، ودوره في توسيع آفاق المشاركة الشعبية بما يقرره من مبدأ الشورى، ودوره في تحقيق السلام الاجتماعي بحمايته للمصالح الخمس المقررة شرعاً: الدين والعقل والنفس والنسل والمال، ودوره في السلام العالمي بما يقرره بشأن علاقات المسلمين بغير المسلمين.

٢- العمل على إزالة الجهل وسوء الفهم والنوايا بين الدول والشعوب الإسلامية وبينها وبين الشعوب الأخرى من خلال الانفتاح الواعي ونشر الأخبار والمعلومات الوافية والصحيحة.

٣- الرد على الدعاوى المغرضة والاتهامات الباطلة الموجهة للإسلام في الداخل والخارج، خاصة فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان بصفة عامة وحقوق المرأة والطفل بصفة خاصة. وقضايا علاقة الإسلام بالعلم والممارسة السياسية وقبول الآخر مادياً وفكرياً.

٤- العمل على إشاعة روح الالتزام بالدين دون إفراط أو تفريط والدعوة لقبول الرأي الآخر واحترام الرأي المخالف وإرساء قواعد الحوار القائم على التكافؤ والتسامح.

٥- التعريف بالجهود العلمية والثقافية التي تبذل في مجالات التقريب بين المذاهب سواء من خلال الإعلام العلمي المتخصص أم من خلال الإعلام العام.

وتنفيذ هذه المهام وتحقيق هذه الأهداف يتطلب إلى جانب ما أشرنا إليه في جانب المؤسسات العلمية والتربوية إعداد سليماً لإعلاميين يجيدون التعامل مع معطيات العصر، مع تزويدهم بالثقافة الإسلامية المستنيرة المستجيبة لمتطلبات العصر. ويتطلب توفير المال اللازم – وقبله الإرادة السياسية – لإنشاء قنوات إعلامية قادرة على مخاطبة الشعوب الإسلامية وغير الإسلامية باللغات المختلفة وبأسلوب العصر. وإنشاء مواقع موحدة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) لنشر المعلومات الصحيحة عن الإسلام وتصحيح المعلومات الخاطئة.

والطريق طويل والمهمة صعبة. ولكن الهدف النبيل الذي نسعى إليه يستحق أن يبذل في سبيله كل فكر وجهد ومال.

والله من وراء القصد وهو سبحانه الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش:

١ - آل عمران/ ١١٠.

٢ - المؤمنون/ ٥٢.

٣ - النساء/ ١.

٤ - الحجرات/ ١٣.

٥ - الروم/ ٢٢.

٦ - هود/ ١١٨.

٧ - يونس/ ١٩.

٨ - البقرة/ ٢١٣.

٩ - الأنبياء/ ٩٢.

١٠ - المؤمنون/ ٥٢.

١١ - الأنعام/ ١٥٣.

١٢ - آل عمران/ ١٠٣ - ١٠٥.

١٣ -الشورى/ ١.

١٤ - الأنعام/ ١٥٩.

١٥ - آل عمران/ ٢٩.

١٦ - آل عمران/ ٥٨.

١٧ - المائدة/ ٣.

١٨ - الحجرات/ ١٣.

١٩ - المائدة/ ٤٨.

٢٠ - النساء/ ٨٢.

٢١ - الأنبياء/ ٩٢.

٢٢ - النساء/ ٥٩.